جنة الدنيا (1)

الشيخ محمد صالح المنجد

نبذة:

إن الإيمان يجعل المؤمن في درجة عالية لا يصلها غيره، إنها درجة العبودية لله، فما أعظم الفرق بين رجلين يعيش أحدهما وهو يعتقد في نفسه أنه مجرد حيوان يسعى للذاته، ويهيم فيها، ويعيش الآخر في الطرف الآخر، وهو يعتقد أن الله قد استخلفه في الأرض، وأمره بعمارتها، وإقامة منهج الله فيها.

عناصر الخطبة:

1. الحياة الطيبة.
2. نعيم الإيمان.
3. السعادة الحقيقة.
4. الحياة بلا إيمان شقاء.
5. لا خوف مع الإيمان.
6. الرضا سر سعادة المؤمن.
7. شاهد عيان.

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} (سورة آل عمران:102).

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} (سورة النساء:1).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} (سورة الأحزاب:70-71).

أما بعد:

الحياة الطيبة:

فقد قال الله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} (سورة النحل:97)، هذا الإيمان والعمل الصالح هو سبب الحياة الطيبة، وهو سبب السعادة والسكينة والطمأنينة التي يحس بها المؤمن، ونعمة الإيمان عظيمة، نعمة من الله تعالى، فما هو أثر الإيمان في حياة الإنسان؟ هذه مسألة ينبغي أن نقف أمامها أيها الإخوة، وأن نتدبر فيها لنستشعر نعمة الله تعالى علينا، ما هو الفرق بين المؤمن وبين غيره؟ ما هو الفرق بين حياة المؤمن وحياة غيره؟ ما هي ميزته على غيره؟

إن الحياة الطيبة أن يعلم المؤمن أن الله خلقه، وسخر له ما في السموات وما في الأرض، سخرها من أجله: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً} (سورة لقمان:20)، إن المؤمن يعلم بأن الله قد اصطفاه وكرمه، إن الله خلق آدم على صورته، قال العلماء: "ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن الله تعالى خلقه حياً عالماً قادراً متكلماً سميعاً بصيراً حكيماً"، ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله: "اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله، وشرفه وخلقه لنفسه، وخلق له كل شيء، وخصه من معرفته ومحبته، وقربه وإكرامه بما لم يعط غيره، وسخر له ما في سمواته وأرضه وما بينهما حتى ملائكته الذين هم أهل قرب استخدمهم له –أي: للإنسان–، وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته، وظعنه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسل إليه رسله، وخاطبه وكلمه منه وإليه، فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات".

يشعر المؤمن بالعزة التي سجلها الله في كتابه: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} (سورة المنافقون:8)، ويشعر بأن الله أعطاه الكرامة التي بها يعلو ولا يُعلى، ويسود ولا يُساد، كما قال عز وجل: {وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً} (سورة النساء:141)، ويشعر المؤمن بأنه في ولاية الله البر الكريم: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ} (سورة محمد:11)، يشعر المؤمن بأنه في معية الله الذي يكلؤه دوماً بعينه التي لا تنام، سبحانه وتعالى، ويحرسه في كنفه الذي لا يُرام، ويمده بنصره الذي لا يقهر، وإن الله مع المؤمنين: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} (سورة الروم:47)، ويشعر المؤمن بأنه في حماية الله القوي القدير، يذود عنه، ويرد عن صدره سهام المعتدين: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} (سورة الحـج:38)، كل هذه المعاني وغيرها لا يشعر بها الكافر على الإطلاق، هل رأيت الكفرة في الشركة والجامعة والمصنع؟ يا عبد الله، إن لك ميزة عليهم أنك تشعر بمقتضيات الإيمان، وهم لا يشعرون بشيء منها، فجعلك الله إنساناً عزيزاً كريماً كبير النفس لا يحني رأسه لمخلوق، ولذلك لا عجب أن ترى بلال بن رباح –ذلك العبد الحبشي الأسود– لما أشرب قلبه الإيمان كان يستعلي على المستكبرين فخراً، ويرفع رأسه عالياً؛ لأن الإيمان قد جعله أرفع عند الله ذكراً، وأسمى مقاماً، فهو ينظر إلى سيده أمية بن خلف، وإلى أبي جهل بن هشام، وغيرهما من زعماء قريش، وصناديد مكة نظرة البصير للأعمى، ونظرة السائل في النور إلى المتخبط في الدجى: {أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ

نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا} (سورة الأنعام:122)، إذا رأيت الكافر أمامك، فاعلم أنه أعمى، وأنت المسلم البصير.

نعيم الإيمان:

إن الإيمان يولد عزاً يفوق ما عند الكفار من ألوان النعيم، ولذلك كان الأعرابي الأمي البدوي ربعي بن عامر رضي الله تعالى عنه الذي لف سيفه بخرقة، ودخل على رستم –قائد قواد الفرس، وهو في هيله وهيلمانه، وأبهته وسلطانه– دخل غير مكترث له، ولا عابئ به، ولا بما حوله من الخدم والحراس، ولا بما يتوهج في خيمته من ألوان الذهب والفضة، والحلي والحرير، وقال له تلك العبارة التي خلدها التاريخ: "نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام".

إن الإيمان –أيها الإخوة– يجعل المؤمن في درجة عالية لا يصلها غيره، إنها درجة العبودية لله، ما أعظم الفرق بين رجلين يعيش أحدهما وهو يعتقد في نفسه أنه مجرد حيوان يسعى للذاته، ويهيم فيها، ويعيش الآخر في الطرف الآخر، وهو يعتقد أن الله قد استخلفه في الأرض، وأمره بعمارتها، وإقامة منهج الله فيها، والجهاد للدفاع عن هذا المنهج، إنه يحس أنه صاحب رسالة، أنه مكلف بإقامة العدل والدعوة إلى الدين، أنه مكلف بإقامة صرح الإسلام في الأرض، بينما ماذا يحس الكافر؟ أنه حيوان يسعى في لذاته وبهيمته، وظلمه للناس، واضطهاده للمستضعفين، وامتصاص الخيرات، والهيمنة والسيطرة لأجل لذاته، ولأجل جيبه وأمواله، وهكذا الفرق العظيم بين الرجلين.

أيها الإخوة، إن الأثر الإيماني في حياة الإنسان عظيم، إنه يجلب له السعادة التي يبحث عنها الناس شرقاً وغرباً، يذهبون في الرحلات السياحية يغيرون الأجواء، يغيرون أثاث البيت، يدخلون المطاعم المختلفة الشرقية والغربية، يلبسون الثياب المختلفة باحثين عن السعادة، وهي عند المسلم في نفس المؤمن، جرب الناس في شتى العصور ألوان المتع المادية، والشهوات الحسية، فما وجدوا السعادة فيها، بحثوا في رخاء العيش، ووفرة النعيم، ورفاهية الحياة، ومستوى المعيشة المرتفع، بحثوا فيها فلم تزدهم إلا ضيقاً وانحباساً، لم تزدهم إلا شقاء وخوفاً، إلا تعاسة، بل أدت بهم إلى الاضطرابات النفسية والعصبية، هاأنت ترى بلداً مثل السويد مثلاً لا يشعر سكانها بخوف من فقر، أو شيخوخة، أو بطالة، أو كارثة؛ لأن الدولة تضمن لهم كل شيء في إعانات دورية ضخمة، يستحق السويدي معاشاً، وإعانة مرض، ومعاش عدم صلاحية، وإعانة غلاء المعيشة، وإعانة مسكن، وإعانة للعمى، تصرف نقداً، وعلاجاً مجانياً في المستشفيات، وتدفع إعانة أمومة لكل النساء شاملة مصاريف الولادة، والرعاية الطبية في المستشفى، وإعانة إضافية لكل مولود، وللطفل مخصص شهري حتى يبلغ ستة عشر عاماً، ومصاريف انتقال مجانية في الإجازات، ومدارس رياض الأطفال برسوم تافهة، والتعليم مجاني في جميع مراحله، وإعانة ملابس، وللطلبة المجتهدين، وتأثيث منازل العرسان، وغيرهم، فماذا جلبت عليهم؟ إن معدل الانتحار في السويد من أعلى معدلات الانتحار في العالم، لماذا وعندهم كل هذا النعيم؟! وعندهم كل هذا الرخاء؟! وكل هذه الرفاهية؟!

وهذه البلد الأخرى الكبيرة لم يحقق الغنى لأبنائها السعادة، على الرغم من ناطحات السحاب، ومراكب الفضاء، وتدفق الذهب من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، حتى قال قائلهم: "إن الحياة في نيويورك غطاء جميل لحالة من التعاسة والشقاء".

إنها ليست بكثرة المال والأولاد، وصدق الله إذ يقول في وصف الكفار الذين نراهم اليوم: {فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} (سورة التوبة:55)، قال عليه الصلاة والسلام: ((من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له)) [رواه الترمذي (2465)]، هكذا هم في هم نازل، وتعب دائم، وحسرة لا تنقضي، مهما نال الشخص منهم شيئاً منها طمحت نفسه إلى ما فوق، وهكذا في عذاب دائم، ((لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً)) [رواه البخاري (6436)، و مسلم (1048)]، حالهم في الدنيا كحال شارب الخمر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً.

ثم إن أولادهم كثيراً ما يجلبون عليهم التعاسة والشقاء في عقوقهم، وكفرانهم لنعمة أولادهم، وإذا لم يكن الولد مؤمناً تقياً براً كريماً فإنه يكون سبب تعاسة لأبويه.

أرى ولد الفتى ضرراً عليه *** لقد سعد الذي أمسى عقيماً

فإما أن يربيه عدواً *** وإما أن يخلفه يتيماً

وإما أن يوافيه حمام *** فيترك حزنه أبداً مقيماً

وهكذا أحس هذا الشاعر بأن العقم هو السعادة من جراء ما رآه من تعاسة الأولاد، ليست السعادة إذن في وفرة المال، ولا سطوة الجاه، ولا كثرة الولد، ولا نيل المنفعة، ولا العلم المادي، ولا المخترعات، ولا الآلات، إنها شيء لا يرى بالعين، ولا يقاس بالكم، ولا تحتويه الخزائن، ولا يُشترى بالدينار، ولا الجنيه والدولار، السعادة شيء يحسه الإنسان بين جوانحه، إنها صفاء نفس، وطمأنينة قلب، وانشراح صدر، وراحة ضمير.

قال زوج لزوجته: لأشقينك، فقالت له بهدوء: لا تستطيع ذلك أبداً، كما أنك لا تملك أن تسعدني، فقال في حنق: وكيف لا أستطيع؟ فقالت في ثقة: لو كانت السعادة في راتب لقطعته عني، أو زينة من الحلي والحلل لحرمتني منها، ولكنها في شيء لا تملكه أنت ولا الناس أجمعون، فقال: وما هو؟ فقالت في يقين: إني أجد سعادتي في إيماني، وإيماني في قلبي، وقلبي لا سلطان لأحد عليه إلا ربي.

هذه هي السعادة الحقيقية التي أحس بها المؤمنون الصالحون، فقال قائلهم: إننا نجد سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوط؛ لأنهم يبحثون عنها أشد البحث.

وقال الآخر، وهو في جنة ذكره في الدنيا، وخلوته بربه: "إنه لتمر علي ساعات أقول فيها: لو كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه لكانوا إذن في عيش طيب".

هؤلاء الذين يعيشون في جنة الإيمان وواحته في الدنيا، هؤلاء هم المغمورون في السعادة حقاً.

السعادة الحقيقة:

يا عباد الله، لا نجحد أن للجانب المادي أثراً في تحقيق السعادة للإنسان، ولأجل ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((أربع من السعادة)) [رواه ابن حبان (4032)]، وذكر منها أموراً دنيوية كالدار الواسعة، والمركب الهنيء، ولكنها ليست كل شيء، ليست في المكان الأول، إن المكان الأول إنما هو للإيمان، هو حقيقة السعادة حقاً، السعادة الحقيقية فيه، إن صاحبه يحس بسكينة النفس، قال أحد الأطباء اللامعين في أمريكا: وضعت مرة وأنا شاب جدولاً لطيبات الحياة المعترف بها، فكتب رغباتي الدنيوية: الصحة والموهبة، والقوة والثراء والشهرة، ثم أطلعت حكيماً من الحكماء عليها، فقال: يبدو أنك أغفلت العنصر المهم الذي بدونه يعود جدولك عبثاً لا يطاق، فقلت: ما هو؟ فضرب على الجدول كله، وكتب كلمتين: سكينة النفس –إنهم يبحثون عنه– سكينة النفس، ثم قال: وقد وجدت يومئذ أن من الصعب أن أتقبل هذا، ولكن الآن بعد نصف قرن من الزمن، والتجربة الخاصة، والملاحظة الدقيقة أصبحت أدرك أن سكينة النفس هي الغاية المثلى للحياة الرشيدة، لقد رأيت السكينة تزهر بغير عون من المال، وبغير مدد من الصحة، بل إنها تحول الكوخ إلى قصر رحب كما تحول القصر قفصاً وسجناً.

فلا سكينة إذن –أيها الإخوة– بلا إيمان، السكينة التي يبحثون عنها أين هي؟ إنها في الإيمان بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، لقد علمتنا الحياة أن أكثر الناس قلقاً واضطراباً وشعوراً بالتفاهة والضياع هم المحرمون من نعمة الإيمان، انظر إليهم في المخدرات، وانظر إليهم في حالات الانتحار، وانظر إليهم في عيادات الأطباء النفسانيين، إن حياتهم ليس لها طعم ومذاق، وإن حفلت باللذائذ والمرفهات؛ لأنهم لا يدركون لها معنى، ولا يفقهون لها سراً، ولكن المؤمن سكينته في نفسه، روح من الله ونور، يسكن إليها إذا خاف، ويطمئن عندها إذا قلق، ويتسلى بها إذا حزن، ويستروح بها إذا تعب، ويقوى بها إذا ضعف، {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا} (سورة التوبة:40).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "في القلب شعس لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذيبه إلا السرور بمعرفة الله وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع على الله، وجمع القلب، وتوحد النية، والتوجه والفرار إلى الله، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبداً.

الحياة بلا إيمان شقاء:

عباد الله، إن الإيمان الذي حرم منه الكفرة والملاحدة قادهم إلى شقاء؛ لأن الواحد منهم لا يعرف الحكمة من خلقه، ولا السبب في وجوده في هذه الحياة، يولدون يعيشون كالبهائم، ويموتون كالهمل، لقد قال قائلهم:

لعمرك ما أدري وقد أذن البلى *** بعاجل ترحالي إلى أين ترحالي

وأين محل الروح بعد خروجه *** عن الهيكل المنحل والجسد البالي

فأجابه مؤمن: وما علينا من جهل إذا كنت لا تدري إلى أين ترحالك فإننا ندري إلى أين المصير، قال الله تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} (سورة الإنفطار:14:13).

لقد حاولوا أن يحلوا أسرار الوجود، وقام فلاسفتهم فتكلموا، وقام الذين تبعوهم منا فتكلموا، فإلى أي شيء انتهوا؟

لقد طفت في تلك المعاهد كلها *** وسرحت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر *** على ذقن أو قارعاً سن نادم

وتمنى أحدهم لو رزق إيماناً كإيمان العجائز: {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ} حيران هو الوصف الدقيق البليغ لهذا الوضع، {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى} (سورة الأنعام:71).

إن الذي لا يؤمن لا يثبت على قرار، ولا يدوم على وجهة أو طريق...

كريشة في مهب الريح طائرة *** لا تستقر على حال من القلق

إن أمرهم يعيش بين ضياع عن معرفة الهدف من الخلق، وشعور بالجبرية، فتجد مذهب الجبرية في كلامهم، وهذه قصيدة الخيَّام التي غنتها من يقول بعض الناس إن غناءها عفيف، وفيه الكفر والإلحاد:

لبست ثوب العمر لم أستشر *** وحرت فيه بين شتى الفكر

وسوف أنضو الثوب عني *** ولم أدر لماذا جئت أين المفر

وقال المعري الملحد في قديم أمره:

نفارق العيش لم نظفر بمعرفة *** أي المعاني بأهل الأرض مقصود

وقال:

سألتموني فأعيتني إجابتكم *** من ادعى أنه دار فقد كذبا

وقال:

تحطمنا الأيام حتى كأننا *** زجاج ولكن لا يعاد له سبك

ولذلك امتنع هذا عن الزواج حتى لا يجني الشقاء على ذريته كما جناها عليه أبوه وأمه، وقال:

وأرحت أولادي فهم في نعمة الـــ *** عدم التي فضلت نعيم العاجل

فأراحهم في نعيم العدم من الشقاء الذي رآه.

وقال الآخر معبراً عن عقيدة الجبرية التي يحس بها من لا إيمان له:

جئنا على كره ونرحل رُغَّماً *** ولعلنا ما بين ذلك نجبر

والملحد الحديث الذي يقول:

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت

ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت

وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت

كيف جئت كيف أبصرت طريقي لست أدري

وطريقي ما طريقي أطويل أم قصير

هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور

أأنا السائر في الدرب أم الدرب يسير

أم كلانا واقف والدهر يجري لست أدري

لست أدري أتراني قبلما أصبحت إنساناً سوياً

كنت محواً ومحالاً أم تراني كنت شيئاً

ألهذا اللغز حل أم سيبقى أبدياً

لست أدري ولماذا لست أدري لست أدري

لكن المؤمن يدري، إن الغاية عنده واضحة، والطريق أمامه واضح: {أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (سورة الملك:22) ما أعظم الفرق بين رجلين: أحدهما عرف الغاية التي من أجلها خلق فهو يسعى لتحقيقها، فيطمئن ويستريح، والآخر ضال يخبط في عماية، ويمشي إلى غير غاية.

لا خوف مع الإيمان:

إن المؤمن لما عرف الغاية، وسار في طريقها استعذب كل عذاب، واستهان بكل صعب، ولما اجتمع عليه الكافرون ليشمتوا فيه، ويظهروا الحرب النفسية، ويرشقونه بالسهام، وهم يظنون أن أعصابه ستنهار في ذلك الموقف، قال معبراً عما يدين به:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً *** على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ *** يبارك على أوصال شلو ممزع

ألا ترى إلى الرجل من الصحابة ومن تبعهم بإحسان يخوض عباب الموت، والموت يبرق ويرعد، وهو يقول: {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} (سورة طــه:84)! ألا تسمعوا إلى أحدهم، حرام بن ملحان رضي الله عنه، وقد نفذ الرمح في صدره، وهو يقول: "فزت ورب الكعبة"، وفي غزوة الأحزاب لما ابتلي المسلمون ابتلاء شديداً، وزلزلوا زلزالاً عظيماً، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، كان للمؤمنين موقف آخر: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} (سورة الأحزاب:22) من الذي وهب السكينة لهم فأعانهم على الثبات؟ {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} (سورة الفتح:4)، {الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} (سورة الرعد:28).

لماذا تنخلع قلوب العالم الآن؟ كثير من الناس في اهتزاز، شخصياتهم في اهتزاز، أفكارهم مشوشة ومضطربة، الأمراض النفسية؛ لأن القلوب لم تطمئن بذكر الله، فظهر مرض نفسي خطير مرض التوحد الذي يشبهه الأطباء

النفسانيون يشبهون صاحبه بشخص في غرفة جميع جدرانها مرايا، فأينما ينظر لا يجد إلا نفسه، وليس لهذه الغرفة أبواب ولا نوافذ، هكذا يعيشون، ويقول أحد أطبائهم: إن مرض إحساس الإنسان بوحدته لمن أهم العوامل الأساسية للاضطرابات العقلية، وبحثوا وبحثوا، وأجروا التجارب، وفي النهاية قالوا: لا حل إلا بالرجوع إلى الدين، كيف يشعر بالتوحد من يقرأ في كتاب الله: {وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ} (سورة البقرة:115)؟ كيف يشعر بالتوحد من يقرأ قول الله ويعتقد به: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} (سورة الحديد:4)؟ إنه شعور موسى عليه السلام لما قال لبني إسرائيل: {إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} (سورة الشعراء:62)، وهي مشاعر محمد صلى الله عليه وسلم لما قال لصاحبه: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا} (سورة التوبة:40)، فالسكينة والطمأنينة في الإيمان.

نسأل الله أن يجعلنا من أهل الإيمان، اللهم اجعلنا هداة مهتدين، وبك مؤمنين، وعليك متوكلين، وبك واثقين، ولا حول ولا قوة إلا بالله رب العالمين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله معز من أطاعه، ومذل من عصاه، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الذي أعطى كل شيء خلقه وهداه، وأشهد أن محمداً رسول الله الرحمة المهداة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

الرضا سر سعادة المؤمن:

عباد الله، إن من الأسباب التي تجعل المؤمن يعيش في أمان وطمأنينة، وراحة نفسية، وحياة طيبة، كما قال الله: {فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} (سورة النحل:97)، إن من الأسباب مسألة رضا المؤمن بالله، ورضاه عن الله، ورضا الله عنه، ولذلك كان الساخط إنساناً دائم الحزن، دائم الكآبة، ضيق الصدر، تضيق الدنيا به على سعتها كأنها سم الخياط، والمؤمن راض بأمر الله تعالى يكتنفه في قضية القدر أمران: الاستخارة قبل وقوع الشيء، والرضا بعد وقوعه، إنه إذا احتار فإن السبيل أمامه واضحة: ((اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي، وعاقبة أمري؛ فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي، وعاقبة أمري؛ فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني)) [رواه البخاري (1166)] يتمنى الكفار لو وجدوا شيئاً كهذا؛ لأنهم يختارون كما نختار، ولكن لا سبيل عندهم لمعرفة الاختيار، وأما المؤمن فإنه يلجأ إلى الله، راض بالله: ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً)) [رواه مسلم (34)، وأحمد (1781)] رواه الإمام أحمد ومسلم.

المؤمن راض عن نفسه، وراض عن ربه، وهو يشعر بأنه ولو كان فقيراً، ولو كان ما كان حاله، فإنه لا يزال يتقلب في نعم الله:

أولها نعمة خلقه: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} (سورة الإنسان:1-2).

ويتملى كذلك في حسن خلقه وتفضيله على غيره: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} (سورة التين:4).

وثالث النعم: نعمة الإدراك والعلم: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} (سورة العلق:3-5)، {وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (سورة النحل:78).

ورابع النعم: نعمة البيان النطقي والخطي: {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} (سورة الرحمن:1-4).

وخامسها: نعمة الرزق: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ} (سورة فاطر:3).

نعمة النَّفَس نعمة، ومن وقع في مرض الربو وغيره عرفها.

والنعمة الخاصة بالمؤمن نعمة الإيمان والهداية: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ} (سورة الحجرات:7).

والسابعة: نعمة المحبة والأخوة التي يعرفها المتآخون في الله، المجتمعون على طاعة الله، قلوبهم متحدة برباط الأخوة: {وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا} (سورة آل عمران:103).

إن المؤمن راض عن ربه دائماً وأبداً، فإذا ختم طعامه قال: الحمد لله الذي أطعمني، وإذا اكتسى ثوباً قال: "الحمد لله أنت كسوتنيه"، "اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه"، وإذا ركب دابة قال: "سبحان الذي سخر لنا هذا"، وإذا استيقظ من نومه قال: "الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا"، وإذا قضى حاجته في الخلاء قال: "الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافني"، وإذا رأى مبتلى في حواسه قال: "الحمد لله الذي عافني مما ابتلاك به"، وإذا تم له ما يريد قال: "الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات"، وإذا لم يتم له ما يريد قال: "الحمد لله على كل حال"، فهو لا يزال يتقلب في رضا الرب، ويحمد ربه في جميع أحواله.

شاهد عيان:

إن قضية الرضا مسألة عظيمة لا يعرفها إلا المؤمنون، لقد كتب أحد الكفرة إف إس بودلي، يقول: في عام ألف وتسعمائة وثمانية عشر أوليت ظهري للعالم الذي عرفته طيل حياتي للغرب، ويممت شطر أفريقيا الشمالية الغربية، حيث عشت بين الأعراب في الصحراء، وقضيت هناك سبعة أعوام، أتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيهم، وآكل من طعامهم، وأتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتلك أغناماً، وأنام كما ينامون في الخيام، وقد كانت تلك الأعوام التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سني حياتي، وأحفلها بالسلام والاطمئنان والرضا بالحياة، لقد تعلمت من عرب الصحراء التغلب على القلق، فهم بوصفهم مسلمين يؤمنون بالقضاء والقدر، وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذاً سهلاً ليناً، فهم لا يُلقون أنفسهم بين براثن الهم والقلق، إنهم يؤمنون بأن ما قُدر يكون، ولا يصيب الواحد منهم إلا ما كتب الله تعالى، وليس معنى ذلك أنهم يتواكنون، أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي، كلا، ودعني أضرب مثلاً لما أعني: هبت ذات يوم عاصفة عاتية، حملت رمال الصحراء، وكانت عاصفة حارة شديدة الحرارة، حتى أحسست كأن شعر رأسي ينتزع من منابته، لفرط وطأة الحر، وأحسست من فرط القيظ كأنني مدفوع إلى الجنون، ولكن العرب لم يشكوا

إطلاقاً، فقد هزوا أكتافهم وقالوا كلمتهم المأثورة: قضاء مكتوب، ولكنهم ما إن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير، فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودي القيظ بحياتها، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء، فعلوا هذا كله في صمت وهدوء، دون أن تبدو من أحدهم شكوى، وقال رئيس القبيلة: لم نفقد الشيء الكثير، فقد كنا خلقاء بأن نفقده، وبأن نفقد كل شيء، ولكن حمداً لله وشكراً، فإن لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد.

شهادة شهد بها ذلك الكافر على الرضا بالقضاء عند المسلمين، الرضا بما كتب الله، والرضا بما قسم الله، وكثير من الناس يفقدونه، تأمل قول الله تعالى: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} (سورة طـه:131) إنها تعلم القناعة، الرضا بما قسم الله تعالى، وتأمل قول الله: {وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ} (سورة النساء:32)، فبين لهم أن هناك أمراً لا يمكن تغييره، وهو أن يصبح الرجل امرأة، أو المرأة رجلاً، وإن قاموا بعمليات لتحويل الخنثى لكن رجلاً كامل الذكورة إلى امرأة كاملة الأنوثة، لا يتمنى هذا هذا، ولا هذا وهذا، والشيخ إذا ولى شبابه لا يحقد على الشاب، وإنما هو مستريح بقضاء الله تعالى.

هذه حياة المؤمن –أيها الإخوة–، وهذا طرف من الحياة الطيبة التي يشيعها الإيمان في جنبات الإنسان، ومن تدبر عرف، والقضية أهل للتدبر والتأمل والتفكير، والمقارنة بين حال المؤمن وحال غيره هي التي تجعلك أن تشعر بنعمة الله عليك.

اللهم إنا نسألك الأمن والأمان، اللهم إنا نسألك الأمن يوم الفزع الأكبر، اللهم اغفر ذنوبنا، واستر عيوبنا، واشف مرضانا، وارحم موتانا، وأهلك عدونا، واستر عيوبنا.

اللهم إنا نسألك أن تجعلنا من عبادك الأخيار، نسألك الهدى والتقوى، والعفاف والغنى، اللهم اجعلنا في حياتنا مطمئنين، وفي الألحاد من الآمنين، ويوم القيامة من الفائزين يا رب العالمين.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وقوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.